الإتباع في العربية

الدكتور حسن نصار

(جامعة القاهرة)

الاتباع ظاهرة لغوية عامة لا تنفرد بها اللغة العربية ، بل تنبه من عرف غير العربية من القدماء الى وجودها فى هذه اللغات ، فقال احمد بن فارس (1) : « وقد شاركت العجم العرب فى هذا الباب » . ونستطيع نحن ان ندرج تحت « العجم » من نعرف لغته من الشعوب الاوربية مثل الانجليز والفرنسيين .

وفطن اللغويون منذ عهد مبكر الى ظاهرة الاتباع . فأورد ابو عمرو بن العلاء رأس مدرسة البصرة امثلة منها . جاء فى كتاب ابي الطيب اللغوي (2) : « قال ابو عمرو : سمعت اعرابيا يقول لآخر : انك لتحسب الارض علي حيصا بيصا ، بكسر اوله .. وقال ابو عمرو : يقال : رجل طب لب . وهو العالم .. » وذكر ابو الطيب ايضا مثالا منه عن رأس مدرسة الكوفة ، قال (3) : « حكى اللحياني عن ابي جعفر الرؤاسي انه يقال للرجل : انه لمجنون مخنون .. »

وطبيعي ان يلتقف تلاميذهما عنهما هذه الامثلة، ويسعوا وراء نظائرها ، ثم يمنحوها تلاميذهم . فنرد فى كتب الاتباع اسماء يونس بن حبيب والاصمعي وابي زيد وابي عبيدة والكسائي وقطرب وابي عمرو الشيباني والفراء والاحمر واليزيدي وابن الاعرابي ، وتشير المعاجم الى ما تعالج من امثلته ، منذ العين للخليل . بل افرد ابن دريد فى جمهرته فصلا للاتباع (4) .

وبالرغم من ذلك ، اختلف العلماء فى تصورهم للاتباع نتيجة اختلافهم فى الصفات التى اشترطوا توافرها فى الالفاظ التى يمكن ادخالها فيه . ويحسن بنا ـ حين نرغب فى تتبع هذه الشروط ـ ان نعالجها وفق التصنيف التالي :

1 ـ من حيث المعنى : ذهبت جماعة من المتقدمين الى ان اللفظ التابع لا معنى له اصلا . واقدم من وصلت الينا منه اقوال تذهب هذا المذهب ابن الاعرابي (231 هـ). قال ثعلب فى اماليه (5): قال ابن

(1) الصاحبي 226 . الثعالبي : فقه اللغة 566 . السيوطي : المزهر 1 : 414 .
(2) الاتباع 14 ، 77 .
(3) الاتباع 39 .
(4) 3 ـ 429 .
(5) السيوطي : المزهر 1 : 414 ، 416 . وانظر احمد بن فارس : الصاحبي 226 ، والاتباع 28 .

الاعرابي : « سالت العرب : اي شيء معنى شيطان ليطان ؟ فقالوا : شيء نتد به كلامنا » : نشده . وتابعه الحسن بن بشر الآمدي (371 هـ) الذى اعلن (6) : التابع لا يفيد معنى اصلا ، ولهذا قال ابن دريد : سالت ابا حاتم عن معنى قولهم : بسن ، فقال : لا ادري ما هو » . وسار وراءهما فى هذا الطريق ابن الدهان (7) الذى راى ان التابع غير مبين معنى بنفسه عن نفسه . ويكاد هذا القول يكون ما قاله فخر الدين الرازي، وان صب كلامه على انكار الترادف بين التابع والمتبوع حين قال (8) : « ظن بعض الناس ان التابع من قبيل المترادف لشبهه به. والحق الفرق بينهما ، فان المترادفين يفيدان فائدة واحدة من غير تفاوت ، والتابع لا يفيد وحده شيئا ، بل شرط كونه مفيدا تقدم الاول عليه » .

وخالفت جماعة اخرى من ذكرتهم ، ولم يشترطوا عدم المعنى ، اذ راوا ان التابع قد يكون له معنى وقد لا يكون . وينتمي الى هذه الجماعة ابو علي القالي ، وابو الطيب اللغوي ، واحمد فارس ، وابن بري ، والتاج السبكي . قال الاخير يرد على الآمدي (9) : « التحقيق ان التابع يفيد التقوية ، فان العرب لا تضعه سدى . وجهل ابي حاتم بمعناه لا يضر بل مقتضى قوله : انه لا يدري، معناه ان له معنى ، وهو لا يعرفه » .

وعندما نتتبع امثلة الاتباع عند ابي الطيب اللغوي نخرج بصور مفصلة محددة . فاننا نجد عنده امثلة لا معنى للتابع فيها ويمنحها اسم الاتباع لانها الاصل فيه . قال (10) : « قال قطرب : يقال : بسلا واسلا : اي حرام محرم . والبسل هاهنا الحرام ، والاسل اتباع . قال الشاعر :

ايثبت ما قلتم ، وتلغى زيادتي
يدي ــ ان اسيغت هذه لكم ــ بسل

اي بيعني التى اعطيتكم يدي بها حرام عليكم.. وانه لكثير بثير بدير بجير : كله اتباع .. ويقال : مكان عمير بجير . فالعمير من العمارة ، فعيل بمعنى مفعول ، وبجير اتباع .. » .

ونجد امثلة اخرى للتابع فيها معنى معروف ، غير انه لا يستعمل بصيغته هذه وبمعناه هذا منفردا، بل لا بد ان يجتمع مع اللفظ الذى يتبعه . ويمكن ان نقسم هذه الامثلة الى قسمين : (ا) قسم يكون فيه التابع مرادفا للفظ المتبوع . قال (11) : « ويقال يوم مكيك اكيك ، ويوم عك الك : اذا كان شديد الحر . والاكيك بمعنى المكيك ، الا انه لا يفرد . قال الراجز:

يوم مكيك يعصر الجلمودا
يترك حمران الرجال سودا

وليلة فاسدة غمودا
سوداء تغشي النجم والفرقودا

.. وانه لكثير بثير .. والبثير من قولهم : ماء بثر : اي كثير . الا انه لا يقال : شيء بثير اي كثير الا على وجه الاتباع .. ويقال : مائق دائق ، من قولهم : رجل مدوق : اي محمق والدوق الحمق ، وكذلك الموق . يقال : ماق الرجل يموق موقا . قال الراجز :

يا ايها الشيخ الكثير الموق
ام بهن وضح الطريق

ولا يتكلم بالدائق مفردا . ويقال : انه ليموق موانة ومؤوقا ، وداق يدوق دواقة ودؤوقا ايضا ». (ب)والقسم الثاني لا يرادف فيه التابع متبوعه بل يختلف معناهما ، غير انه لا يفرد ايضا بصيغته ومعناه المرادين فى الاتباع . قال (12) : « ويقال : شحيح انيح : من قولهم : انح بحمله يانح انوحا : اذا تزحر به من ثقله ، ولا يفرد الانيح .. ويقال انه لشحيح بحيح ، وهو من البحة . ولكن لا يجوز افراده .. تقول العرب : لا بارك الله فيه ولا تارك . ولا يقولونه الا هكذا . فهو ــ وان كان ماخوذا من الترك ــ فلا معنى له فى هذا الموضع الا الاتباع »

(6) المزهر 1 : 15 4. (7) المزهر 1 : 424 . (8) المزهر 1 : 415 (9) المزهر 1 : 416 .
(10) 5،13،20 . (11) 8 ، 13 ، 42 . (12) 7 ، 17 ، 28 .

ولا يعطينا كتاب احمد بن فارس مثل هذه الصورة الواضحة . ولعل سبب ذلك انه لم يفرده للاتباع . بل جعله ـ كما يبين من عنوانه ـ « للاتباع والمزاوجة » . وقد يتبادر الى الذهن ان المؤلف يعدهما شيئا واحدا . ولكن ذلك غير صحيح. فهو يعلن في السطر الاول من كتابه (13) : « هذا كتاب الاتباع والمزاوجة ، وكلاهما ... » فيفرق بينهما، كذلك يورد في داخل الكتاب من التعليقات ما يؤكد هذه التفرقة . قال (14) : « قال الاصمعي: رجل خياب ثياب . قال : خياب : من خاب ، وثياب تزويج ، وهو يصلح ان يكون اتباعا » .

ولم يقتصر المؤلف على المزاوجة . بل اورد في كتابه امثلة قليلة مما سماه «الاسجاع» و«الامثال». على الرغم انه اعلن في آخر الكتاب انه خصص لها كتابا. قال (15) : « وسترى ما جاء في كلامهم في الامثال ، وما اشبه الامثال من حكمهم على السجع ، في كتاب «امثلة الاسجاع» ، ان شاء الله تعالى ». وعلى الرغم انه يعترف ان الاسجاع ليست من صنف الكتاب ، قال (16) : « ومن الاسجاع . وليس من هذا الباب : قول بائع الدابة : برئت اليك من الجماح والرصاح ».

واورد ما سماه تأليفا للكلام ، وتاكيدا ، دون ان يبين ماذا يقصد من ذلك ، وما صلته بالاتباع ، قال (17) : « ومما يراد به تأليف الكلام قولهم : ارب فلان ، والب ، فهو مرب وملب : اذا اقام ». وقال (18) : « لا افعله سجيس عجيس : يريدون الدهر . الاصمعي : لا آتيك سجيس عجيس : اي الدهر ، وسجيسه : آخره ، ومنه قيل للماء الكدر : سجيس ، لانه آخر ما يبقى . والعجيس تاكيد ، وهو في معنى الآخر » . بل اكثر من ذلك اورد ما ليس باتباع ، وما ليس من الكتاب . قال (19) : « ومن ذلك ـ وليس باتباع ـ رجل اشق اشق خبق: للطويل » . وقال (20) : وذرق الطائر ومرق وزرق وخذق ، وليس من الباب » .

يبين لنا هذا ان كتاب ابن فارس يضم خليطا من العبارات ، حار فيها المؤلف نفسه ، واعطاها اسماء متعددة وادخلها في كتابه ، وهو يؤمن ان بعضها على الاقل لا يتصل بموضوع الكتاب . ولا يقف الامر عند هذا بل نجد الصورة المبهمة المختلطة نفسها فيما سماه بالاتباع . اذ نستنتج من بعض اقواله ان التابع لا معنى له . قال (21) : « يقولون: هو مليح قزيح ، وهذا اتباع . وقد يكون من اقراح القدر وهي الافحاء ... يقال جائع نائع . الكسائي: هو اتباع . ويقال : هو العطشان .. ابو زيد : هو تافه نافه : اي حقير ، كذا قاله في الاتباع . وقد يمكن ان يقال : اشتقاقه من نفهت نفسه ، اي اعيت وكلت » .

ونستنتج من بعضها الآخر ان التابع له معنى معروف ، ولا يهم ان يكون هذا المعنى مرادفا لمعنى المتبوع او مختلفا عنه . قال مثلا (22) : «اللحياني : ما عنده على اصحابه تعريج ولا تعويج : اي اقامة ..... وفلان لا يغير ولا يمير ، يقال للميرة الغيرة ايضا .. ويقال ذهب حبره وسبره . الحبر والسبر: الجمال والبهاء » . وقال (23) : تقول العرب : انه لسائب لائب . فالسائب : الجائع . واللائب : المعيي الكال ... ويقولون : خب ضب . فالضب : البخيل الممسك . والخب : من الخب ... وما عنده

---

(13) 28 . (14) 29 . (15) 70 . (16) 37 ، 43 . (17) 30 . (18) 49 .

(19) 60 . (20) 61 . (21) 35 ، 54 ، 68 . (22) 34 ، 42 . (23) 29 ، 52 .

فيض ولا فيض : اي كثير ولا قليل . ويقال : الاعطاء والمنع » .

2 ـ من حيث الصورة : اقدم من تناول هذا الجانب صراحة ابو علي القالي ، الذى فطن الى اتحاد الحرف الاخير فى التابع والمتبوع ، او ما سمى بعد ذلك اتحاد الروي . قال عن العرب (24) : «مذهبهم فى الاتباع ان تكون اواخر الكلم على لفظ واحد مثل القوافي والسجع » .

ولكن ابا الطيب وابن فارس رويا اتباعا لم يلتزم الروي الواحد . قال ابو الطيب (25) : « يقال فى الدعاء على الرجل : جوعا وجودا وجوسا . فالجود هو الجوع بعينه . وقولهم جوسا اتباع » . وقد نبه ابن فارس على هذه الظاهرة الشاذة عندما اورده ، فقال (26) : «ومما لم يجيء على روى الاول جوعا له وجودا وجوسا » . ودفعه هذا الى عدم اشتراط الروى الواحد ..

وفطن ابن فارس ايضا الى ان اكثر الاتباع يتماثل التابع والمتبوع فيه فى الوزن وان كان ذلك ليس بالشرط الواجب . فقد اورد فى الاتباع (27) : « يقولون : وهو لك ابدا سمدا سرمدا .. » واكثر ابو الطيب من امثلة الاتباع غير المتماثل الوزن. مثل (28) : « يقال : لا دريت ولا اليت . مقصور اوله .... ويقال : جوعا ديقوعا ، اذا دعي على الانسان .. ويسب الرجل فيقال : رغما دغما شنغما . وفعلت ذلك على رغمه ودغمه وشنغمه ». ولذلك يحق لنا ان نقول ان تاج الدين السبكي اخطأ حين قال (29) : « فالتابع من شرطه ان يكون على زنة المتبوع » .

ويؤكد لنا هذا ان احسن تعريف ينظر الى هذا الجانب للاتباع هو ما جاء به احمد بن فارس ، واخذه منه الثعالبي حين قال (30) : « الاتباع : ان تتبع الكلمة على وزنها او رويها اشباعا وتوكيدا » . فاذا كان اتحاد الروى غير لازم ، واتحاد الوزن غير محتم ، فان الاتباع لا يخلو منهما معا .

3 ـ من حيث التعبير : اجمع الذين تعرضوا للاتباع ان اللفظ التابع لا ينفصل عن المتبوع ، سواء كان له معنى او لم يكن ، ولا يجيء فى التعبير منفردا مطلقا . واتخذ ابو الطيب من انفراد الكلمة الثانية المقياس الذى اعتمد عليه فى الفصل بين الاتباع والتوكيد . فما لم ينفرد فيه اللفظان سماه اتباعا . وما انفرد فيه اللفظ الثاني سماه توكيدا . ولكن ابن فارس اقر فى مرة واحدة وجود اتباع ينفرد . قال (31) : « ويقال : خراب يباب . وقد يفرد اليباب . قال عمر بن ابي ربيعة :

كست الرياح جديدها من تربها
دفقا واصبحت العراص يبابا

فهذا اتباع الا انه افرده » . اما ابو الطيب فقد تخلص من هذا المأزق بان جعل امثاله فى التوكيد (32) ..

واشترط الكسائي وابو عبيد وابن بري الا يعطف الاتباع بأداة . قال ابو عبيد فى غريب الحديث (33) : «قال الكسائي .. واما حديث آدم عليه السلام : انه استحرم حين قتل ابنه ، فمكث مائة سنة لا يضحك . ثم قيل له : حياك الله وبياك . قال وما بياك ؟ قيل : اضحكك . فان بعض الناس يقولون فى بياك : انه اتباع . وهو عندي ـ على ما جاء تفسيره فى الحديث ـ انه ليس باتباع . وذلك ان الاتباع لا يكاد يكون بالواو ، وهذا بالواو.. ومن ذلك قول العباس فى زمزم : هي لشارب حل

---

(24) الامالي 2 : 217 . (25) 35 . (26) 54 . (27) 38 . (28) 10 ، 42 ، 58 .
(29) المزهر 1 : 416 . (30) الصاحبي 226 . فقه اللغة 566 . (31) 29 . (32) 111 .
(33) المزهر 1 : 415 .

وبل . فيقال : انه ايضا اتباع وليس هو عندي كذلك لمكان الواو » .

وجاء في لسان العرب تعليقا على قولهم : جوعا ونوعا (34) : «قال (ابن بري) : والصحيح ان هذا ليس اتباعا لان الاتباع لا يكون بحرف العطف ، والآخر ان له معنى في نفسه ينطق به مفردا غير تابع ».

ولكن ابا الطيب اللغوي (35) رفض هذا الراي، ورد عليه ردا حسنا، معتمدا على مسلك العرب في تعبيرهم . فقد رآهم يقولون : هذا جائع نائع ، فدل على انه اتباع . ورآهم يقولون في الدعاء على الانسان : جوعا ونوعا ، فادخلوا الواو . فلو اعتمدنا عليه قلنا انه ليس اتباعا . ومحال ان تكون الكلمة الواحدة مرة اتباعا ومرة غير اتباع . اذن ليس الاعتبار بوجود الواو او عدمها .

ونستبين من دراسة امثلة الاتباع انه ليس من المحتم ان يتالف من لفظين فقط ، بل قد يتالف من ثلاثة فيقال (36) : انه لحسن بسن قسن . ولحمه خظا بظا كظا : وانه لقبيح شقيح لقيح . ويبدو انه تالف احيانا من اكثر . قال ابو الطيب (37) : « يقال في الكثرة : انه لكثير نثير بثير بذير عقير ، وعمير ايضا » .

4 ـ من حيث الغرض : اول من تعرض للغرض من الاتباع الكسائي ، واعلن انه يراد منه التوكيد قال (38) : « انما سمي اتباعا لان الكلمة الثانية انما هي تابعة للاولى على وجه التوكيد لها » . ويؤكد لنا صحة هذا القول الجواب الذي تلقاه ابن الاعرابي من العرب حيث سالهم عن معنى شيطان ليطان .

واتفق ابو علي القالي (39) مع الكسائي . غير انه يقصر التوكيد على نوع واحد من الاتباع ، ذلك الذي يكون فيه اللفظ التابع بمعنى المتبوع .

ووافقهما ابن الدهان ، وجعل الاتباع من قبيل التوكيد اللفظي ، واتى بالمثال التي تدعم رايه . قال السيوطي (40) : « قال ابن الدهان في الغرة في باب التوكيد : منه قسم يسمى الاتباع نحو عطشان نطشان ، وهو داخل في حكم التوكيد عند الاكثر . والدليل على ذلك كونه توكيدا للاول غير مبين معنى بنفسه عن نفسه ، كاكتع وابصع مع اجمع .. والذي عندي ان هذه الالفاظ تدخل في باب التوكيد بالتكرار ، نحو رايت زيدا زيدا ، ورايت رجلا رجلا . وانما غير منهما حرف واحد لما يجيئون في اكثر كلامهم بالتكرار .. »

واعلن السيوطي (41) وجود قوم يفرقون بين الاتباع والتوكيد . واعتمادهم في هذه التفرقة على امرين : اولهما ان الفاظ الاتباع تختلف عن اكتع لانها تجري على المعرفة والنكرة، على حين لا تجري اكتع الا على المعرفة ، ولانها غير مفتقرة الى تاكيد قبلها بخلاف اكتع . والثاني ان الاتباع ما لم يحسن فيه واو العطف . والتاكيد تحسن فيه الواو .

ويتفق مع هؤلاء تاج الدين السبكي الذي قال (42) : «الفرق بينه وبين التاكيد ان التاكيد يفيد مع التقوية نفي احتمال المجاز . وايضا فالتابع من شرطه ان يكون على زنة المتبوع والتاكيد لا يكون كذلك »

ونستطيع ان نضم اليهم ابا الطيب اللغوي لانه جعل المواد التي ادخلها في كتابه صنفين : الصنف الاول سماه الاتباع ، وهو ما لا ينفرد اللفظ فيه ابدا. وسمى الثاني التوكيد ، وهو ما يمكن ان يستقل لفظه الثاني بنفسه . وبرغم ذلك لم يكشف لنا ابو الطيب الغرض من الاتباع . ولعله تعرض لذلك في الجزء المفقود من مقدمته .

اما احمد بن فارس فراى ان الاتباع لا يقصد الى التاكيد وحده ، بل اليه والى ما سماه الاشباع

---

(34) مادة نوع . (35) 3 . (36) ابو الطيب 71 ، 72 ، 76 ، 77 ، 99 ، 96 ، 99 .
(37) 62 . (38) المزهر 1 : 415 . (39) الامالي 2 : 208 . (40) المزهر 1 : 424 .
(41) المزهر 1 : 424 ـ 25 . (42) المزهر 1 : 416 .

دون ان يحدده ، كما نستبين فى قوله الذى اوردته سابقا .

ويؤدي بنا هذا الى ان العلماء لم يتفقوا على تصور واحد للاتباع ، وان بعضهم اعطاه صفات حرمه بعضهم الآخر اياها . وكانت الثمرة الطبيعية لهذا ان اختلفت الاقسام التى وضعوها له . واقدم ما بين يدي من اقسام ما اضطلع به ابو علي القالي ، وكشف عنه فى قوله (43) « الاتباع على ضربين :

فضرب يكون فيه الثاني بمعنى الاول ، فيؤتى به توكيدا ، لان لفظه مخالف للفظ الاول .

وضرب فيه معنى الثاني غير معنى الاول » .

ويؤخذ على هذا التقسيم انه اهمل ما لا معنى له من الاتباع ، وهو الاصل . وصورة التابع . وقد فطن احمد بن فارس الى هذا النقص واراد ان يتجنبه . فجاء بتقسيمين لا واحد ، نظر فى الاول منهما الى صورة التابع ، وفى الثاني الى معناه . قال (44) : « هذا كتاب الاتباع والمزاوجة . وكلاهما على وجهين :

احدهما ان تكون كلمتان متواليتان على روي واحد .

والوجه الآخر ان يختلف الرويان .

ثم تكون بعد ذلك على وجهين :

احدهما : ان تكون الكلمة الثانية ذات معنى معروف . الا انها كالاتباع لما قبلها .

والآخر : ان تكون الكلمة الثانية غير واضحة المعنى ولا بنية الاشتقاق » .

ويمكن ان نأخذ على هذا التقسيم ايضا انه اهمل الوزن .

واشمل تقسيم للاتباع هو الذى قام به الاستاذ عز الدين التنوخي ، وقال فيه : « ان الاتباع يكون فى الاسماء وفى الافعال :

1) والاتباع الاسمى قسمان :

(أ) اما ان يكون التابع متصلا بالمتبوع وبمعناه، اوليس له معنى ، ثم لا يجيء مفردا .

وهو نوعان :

1 ـ نوع يجيء التابع فيه بلفظ واحد بعد المتبوع ، فهو حسن بسن ، وحار بار .

2 ـ نوع يجيء فيه لفظان بعد المتبوع ، نحو حسن بسن قسن ، ويكثر ان تكون الكلمة التابعة مبدوءة بميم نحو صقر مقر ، وشذر مذر .

(ب) واما ان يكون التابع متصلا بالمتبوع وله معنى ، ولا يجيء مفردا كما هو فى القسم نحو عطشان نطشان .

2) والاتباع الفعلي :

1 ـ والافعال فى هذ القسم الثاني قد تكون ظاهرة وبلفظ واحد نحو عبس وبسر .

2 ـ وقد تكون مقدرة كالمصادر التى قدرت افعالها نحو قبحا له وشقحا ..

وقد يجيء الاتباع الفعلي بلفظين تابعين نحو : لا بارك الله فى الشعوبي ولا تارك ولا دارك » .

والحق ان الاتباع ظاهرة لغوية ، واسعة النطاق متعددة الاشكال . كثيرة الاسباب والغايات . ويجب ان ننظر اليها فى ضوء من اشكالها الاخرى لنحسن رؤيتها ، ونتم تصورها ..

فاللغة عرفت الوانا اخرى من الاتباع ربما لا ترد على الخاطر فى هذه الدراسة ولكن ذلك واجب ، لانها ذات صلة بما نتحدث عنه الآن .

فقد اجرى العرب ـ وغير العرب ـ الوانا من الاتباع . فطن اليها اللغويون والنحويون والصرفيون، ودرسوها ، ولكنهم لم يربطوا بينها وبين ما بين ايدينا الآن من اتباع . ونحن حين ننظر فى هذه الالوان نستطيع للتيسير ان نصنفها فى فئتين : الفئة الاولى جرت فى المفردات اللغوية ، والثانية فى المركبات .

اما المفردات فقد خضعت لنوعين من الاتباع : نوع جرى فى حركاتها وآخر فى حروفها . وكلا النوعين يضم المطرد من الاتباع وغير المطرد .

---

(43) الامالي 2 : 208 .

(44) 28 .

اما الاتباع المطرد في حركات المفردات فيتمثل في عدة ابواب نحوية وصرفية .

فالقياس في جمع المؤنث السالم من الالفاظ الثلاثية الساكنة الوسط ان تتبع عينها فاءها . فما كان على فعلة جمع على فعلات مثل تمرة وتمرات ، وما كان على فعلة جمع على فعلات مثل حجرة وحجرات الا اذا كانت الكلمة معتلة العين او اللام . او كان المتكلمون من بني هذيل او تميم . فلهم احكام اخرى .

والقياس في الفعل الماضي عند بنائه للمفعول : ان كان مبدوءا بتاء زائدة ان يضم حرفه الثاني اتباعا لاوله مثل استخرج المعدن . والقياس في فعل الامر المأخوذ فعل يفعل ان تضم همزة الوصل فيه اتباعا لضمة عينه . .

والقياس عند بني تميم فيما كان على فعل الحلقي العين من الافعال كشهد ، والاسماء كفخذ ، والصفات كمحك ، وما كان على فعيل الحلقي العين ايضا كسعيد ورغيف ، القياس عندهم فيهما اتباع الفاء للعين فيقولون شهد وفخذ ورغيف .

وقال عيسى بن عمر : ان كل (فعل) كان ، فمن العرب من يخففه ، ومنهم من يثقله نحو عسر وعسر ، ويسر ويسر (بالسكون والضم) .

وان كان عين (فعل) المفتوح الفاء حلقيا ساكنا جاز تحريكه بالفتح ، نحو الشعر والشعر والبحر والبحر ، (بالسكون والفتح) ، وعد ذلك اتباعا لفتحة الفاء .

واما الاتباع غير المطرد في حركات المفردات فأمثل له بقولهم : المغيرة ، اتبعوا الميم للغين ، ومنتن : اتبعوا الميم للتاء ، وانبؤك : اتبعوا الباء للهمزة ، ومنذ : اتبعوا الميم للذال عند من قال : ان اصلها : من ذو ، وغيرها .

كل هذه الالوان من الاتباع : المطرد وغير المطرد، انما ارتكبتها العربية لتيسر على المتكلم النطق . فبدلا ان تقوم اجهزة النطق بعملين مختلفين في موضعين متقاربين مما قد يتطلب من الناطق جهدا او وعيا، كفته اللغة مؤونة ذلك بازالة الاختلاف وجعل العملين متشابهين . واذن فالغرض من الاتباع في مثل هذه الاحوال تيسير النطق وجعله عفويا .

واقصد بالاتباع في حروف المفردات ما يجري فيها حين تخضع لابدال او ادغام . فالقياس المطرد في نون انفعل من الافعال المبدوءة بميم جواز قلب نونها ميما متابعة لميم الفعل ثم ادغام الميمين معا . فنقول امحى في انمحى . والقياس المطرد في تاء افتعل من الافعال التي فاؤها دال او ذال او طاء او ظاء او ثاء او صاد او سين أو زاي او ضاد جواز قلب التاء الى حرف مماثل للفاء اتباعا لها ثم ادغام الحرفين فنقول ادان واذكر واظلم . .

وانما تجري اللغة ذلك لتجعل للحرفين الذين كانا مختلفين مخرجا واحدا ، فتيسر على الناطق ان ينطق بهما ، كما حدث في الالوان السابقة من اتباع الحركات .

كذلك تخضع المركبات لالوان مشابهة من الاتباع . اطرد منها ما كان في الفعل المضعف حين يلتقي بساكن آخر . فقد كان الاتباع احد المسالك التي سار فيها العرب للتخلص من التقاء الساكنين . فقالوا : شد الحبل ، وعز ، وعض ، باتباع لام الفعل لفائه . كذلك لجأ بعضهم الى الاتباع للتخلص من التقاء الساكنين في ميم الجمع ، فقالوا : عليهم الذلة. كقراءة ابي عمرو ، وعليهم القتال كقراءة حمزة باتباع الميم لحركة ما قبلها .

ومن الالوان غير المطردة في التخلص من الساكنين القراءات الشاذة (قم الليل) و (قد استهزيء) و (قالت اخرج) باتباع الحرف الساكن الاول لحركة الحرف الذي بعد الساكن الثاني . .

ومن غير المطرد ايضا قراءة (بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله) باتباع الميم للحاء بعدها .

والمقصود بهذه الاجراءات ما قصد بما جرى في المفردات : التخفيف القائم على تماثل العمل الذي تقوم به اجهزة النطق .

وتخضع المركبات لاتباع يجري في الحروف ايضا. اشهر امثلته ما جاء في الحديث النبوي : « ارجعن مازورات غير ماجورات » ، فغير موزورات (من الوزر) حولت الى مأزورات اتباعا لمأجورات .

ومثاله ايضا الحديث النبوي في عذاب القبر : « لا دريت ولا تليت ولا اهتديت » فابدل واو (تلوت) ياء اتباعا ليائي الفعلين قبله وبعده .

ومثاله ايضا قولهم : انى لآتيه بالغدايا وبالعشايا. فجمعوا العشية على العشايا متابعة للغدايا .

كذلك تنوين الممنوع من الصرف فى قوله تعالى: (سلاسلا واغلالا) ، نونت سلاسل متابعة لاغلال .

ويمكن ان نجعل منه زيادة (ال) فى (يزيد) فى قول ابن ميادة :

وجدنا الوليد بن اليزيد مباركا
شديدا باحناء الخلافة كاهله

فربما فعل ذلك اتباعا للوليد .

اذا نظرنا الى هذه الانواع من الاتباع لم نجد المقصود منها التخفيف ، كما كان الحال فى الانواع الاولى ، وانما المقصود المشاكلة الصوتية: اعني ان يكون لكل من اللفظين رنين متماثل ، فيقع فى الاذن عذبا ، وفى الوجدان حلوا . فالغاية هنا الجمال الصوتي ، الشبيه بما نجد فى السجع ، والقافية والجناس .

ونخرج من هذا بان الاتباع فى مجاله الاكبر يمنح الناطق خفة وسهولة ، وفى مجاله الاصغر يمنح السامع شعورا جماليا .

فاذا انتقلنا الى ما درسنا من الاتباع وجدناه يستفيد قليلا من المجال الاكبر ، وكثير من الجمال الصوتي .

ونحن حين نمعن النظر فى اسلوب الاتباع نجده يشبه اساليب اخرى تعرفها اللغة . فهو فى اصله صوت لغوي يتبعه صوت آخر مماثل له، او ان شئنا الدقة التامة قلنا : صوت لغوي يتبعه صوت آخر مماثل له ، او ان شئنا الدقة التامة قلنا : صوت لغوي يتبعه صوت آخر مماثل لآخر الصوت الاول . فهما صوتان متماثلان فى ختامهما ، وفى اكثر الاحيان فى القسط الاكبر من بنيتهما . فاذا ما اتفقا فى حرف واحد ، وجدناهما يتفقان فى حرف آخر غير انهما اختلفا فى موضعه ، فجعله احدهما اولا والثاني وسطا ، مثل قبيح شقيح ، وسليخ مسيخ ..

واقرب الامثلة على ما يشابه هذه الظاهرة ما يكون فى بابي الندبة والاستفهام . فالقاعدة فى المندوب ان يفتح آخره ثم يشبع الصوت به حتى تتولد الف مثل قولهم : وازيداه ، فان لم يمكن ذلك خوف اللبس اشبعت الكسرة فتولد ياء مثل واغلاميه، او الضمة فتولد واوا مثل واغلاميوه . فالمندوب يتلى بصوت مماثل لصوته النهائي دلالة على التفجع .

واذا رابك شيء فى كلام فاستفهمت عنه منكرا له ، جئت بزيادة فى آخر الكلام دلالة على ذلك . فان كان ما قبله مفتوحا ، كانت الزيادة الفا . وان كان مكسورا ، كانت الزيادة ياء . وان كان مرفوعا ، كانت الزيادة واوا . وان كان ساكنا ، حرك لئلا يلتقي ساكنان . لان هذه الزيادات مدات ، والمدات سواكن فتحركه بالكسر كما يحرك الساكن اذا لقيه الالف واللام الساكن . فاذا قال الرجل : رايت زيدا . قلت: ازيدنيه . فان قال : رايت عثمان . قلت اعثماناه ؟ لئلا يلتقي ساكنان . ويقول : قدم زيد . فتقول : ازيدنيه . فان قال : رايت عثمان . قلت اعثماناه ؟ فان قال : اتاني عمر . قلت : اعمروه ؟ فهذه الزيادة المماثلة للصوت المختومة الكلمة به دليل على ما يعتمل بنفسه من انكار .

واذن فقد كانت الزيادة فى باب الندبة دلالة على التفجع ، والزيادة هنا رمزا الى الانكار ، وكانت الزيادة فى البابين مماثلة للحركة التى تنتهي بها الكلمة التى تلحق الزيادة بها . واذن فهذه الزيادة دلالة على الحالة النفسية التى يعيش فيها المتكلم حين تفوه بها ..

والنتيجة الطبيعية لهذا ان اللغة العربية تلجا الى اتباع كلمة ما بصوت مماثل لنهايتها دلالة على ما يختلج فى وجدان المتكلم من مشاعر . وعلى ضوء من هذا نقول انما الاتباع رمز على حالة شعورية خاصة تتملك قائله : قد تكون اعجابا فى مثل حسن بسن ، وقد تكون غضبا فى الدعاء ... لا يهنم .. فمهما اختلف الشعور . فالاتباع رمز له ..

والاصوات التى اضافتها اللغة فى امثال الندبة والاستفهام الانكاري مبهمة ، لم تتخذ شكلا ، ولم تكتسب معنى ، بل بقيت على حالتها الاولى ، مجرد رمز مبهم . وقد وقف كثير من اصوات الاتباع عند هذه المرحلة ولم يتعدها الى مجال الوضوح . فاقر

العلماء انه لا معنى له . وحاروا فى بعضه اذ حاولوا ان يلصقوا له معنى ما . ولكن بعض هذه الاصوات تعدى هذه المرحلة . واكتسب معنى مستقلا . وبعضها الآخر اخذ من الفاظ معروفة المعنى . صلحت من حيث اصواتها لان تكون اتباعا . ولا شك ان امثال هذا النوع اكتسبت من الاتصال المعنوي بين التابع والمتبوع توكيدا للفكرة التى تعبر عنها . ولا شك ـ عندي ـ ان النوع الاول . المكون من تابع مبهم . اكتسب توكيدا ايضا من التماثل الصوتي بين التابع والمتبوع . لان المستمع غير المتنبه يظن انه سمع اللفظ الواحد مرتين . تحريرا وتوكيدا ..

وصفوة القول ان الاتباع ظاهرة لغوية جمالية : تدل على ما يعانيه المتكلم من انفعال . وتمنح المستمع متعة فنية . ويجب ان تدرس مع منيلاتها من الظواهر اللغوية التى لا يقصد المتحدث فيها الى الاخبار المجرد . ويرمي معه الى المشاركة الوجدانية ..